

السِّنْدِبادُ البَحْرِيّ
أجمل حكاياتي
CHIHAB Kids

أجمل حكاياتي

السِّنْدِبَادُ الْبَحْرِيُّ

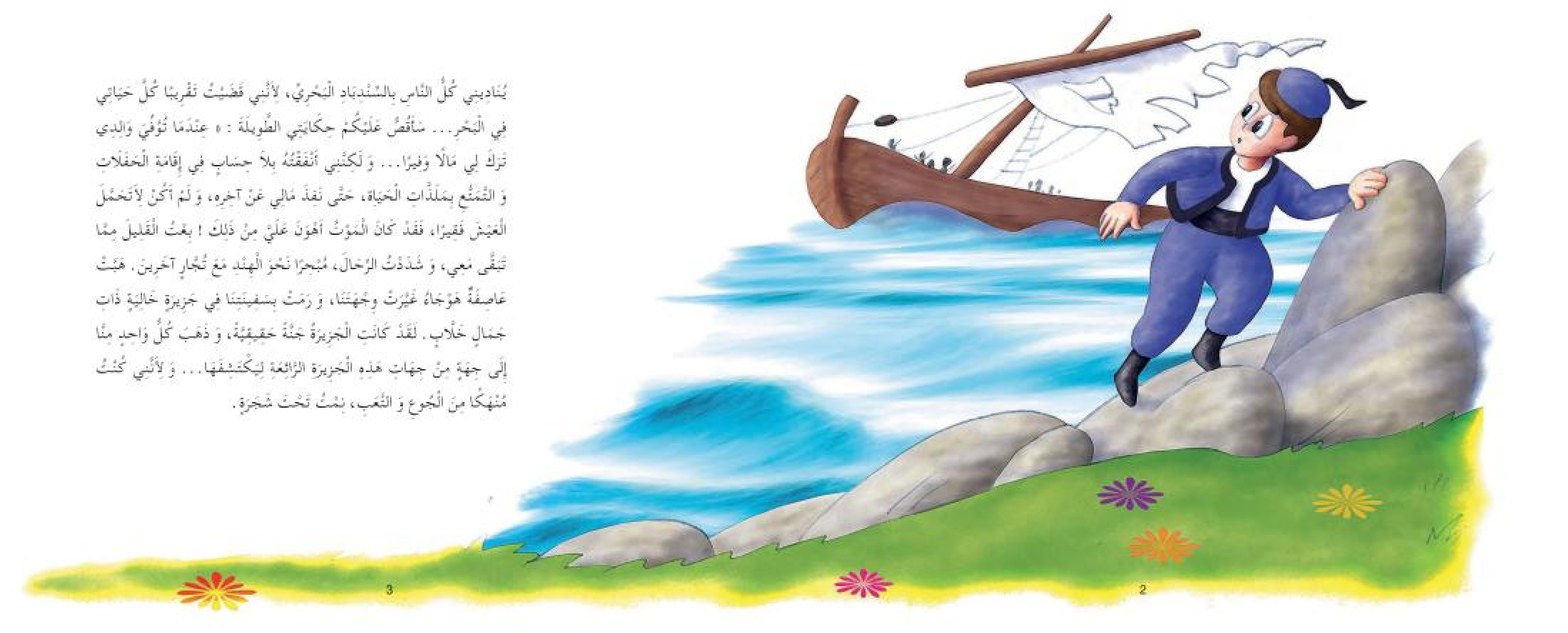


مقتبسة من حكايات ألف ليلة و ليلة

رسوم : منصور عموري



يُنَادِينِي كُلُّ النَّاسِ بِالسِّنْدِبَادِ الْبَحْرِيِّ، لأَنَّنِي قَضَيْتُ تَقْرِيبًا كُلَّ حَيَاتِي فِي الْبَحْرِ... سَأَقُصُّ عَلَيْكُمْ حِكَايَتِي الطَّوِيلَةَ : « عِنْدَمَا تُوُفِّيَ وَالِدِي تَرَكَ لِي مَالاً وَفِيرًا... وَ لَكِنَّنِي أَنْفَقْتُهُ بِلاَ حِسَابٍ فِي إِقَامَةِ الْحَفَلاَتِ وَ التَّمَتُّعِ بِمَلَذَّاتِ الْحَيَاةِ، حَتَّى نَفِدَ مَالِي عَنْ آخِرِهِ، وَ لَمْ أَكُنْ لأَتَحَمَّلَ الْعَيْشَ فَقِيرًا، فَقَدْ كَانَ الْمَوْتُ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ ! بِعْتُ الْقَلِيلَ مِمَّا تَبَقَّى مَعِي، وَ شَدَدْتُ الرِّحَالَ، مُبْحِرًا نَحْوَ الْهِنْدِ مَعَ تُجَّارٍ آخَرِينَ. هَبَّتْ عَاصِفَةٌ هَوْجَاءُ غَيَّرَتْ وِجْهَتَنَا، وَ رَمَتْ بِسَفِينَتِنَا فِي جَزِيرَةٍ خَالِيَةٍ ذَاتِ جَمَالٍ خَلاَّبٍ. لَقَدْ كَانَتِ الْجَزِيرَةُ جَنَّةً حَقِيقِيَّةً، وَ ذَهَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الرَّائِعَةِ لِيَكْتَشِفَهَا... وَ لأَنَّنِي كُنْتُ مُنْهَكًا مِنَ الْجُوعِ وَ التَّعَبِ، نِمْتُ تَحْتَ شَجَرَةٍ.



وَ عِنْدَمَا اِسْتَيْقَظْتُ بَحَثْتُ - دُونَ جَدْوَى - عَنْ رِفَاقِي... كُنْتُ أُنَادِي عَلَيْهِمْ بِصَوْتٍ عَالٍ، فَلَمْ يَكُنْ يُجِيبُنِي سِوَى صَوْتُ الرِّيحِ وَ زَقْزَقَةُ الْعَصَافِيرِ. رَكَضْتُ نَحْوَ الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ حَيْثُ كَانَتْ سَفِينَتُنَا قَدْ رَسَتْ، فَرَأَيْتُ - عَلَى مَرْمَى الْبَصَرِ - نُقْطَةً صَغِيرَةً... كَانَتْ سَفِينَتُنَا بَعِيدَةً جِدًّا. لَقَدْ تُرِكْتُ فِي الْجَزِيرَةِ! صَعِدْتُ إِلَى أَعْلَى شَجَرَةٍ، عَلَى أَمَلِ أَنْ أَرَى قَرْيَةً فِي الْجِوَارِ... فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، لاَ شَيْءَ فِي الْجِوَارِ، غَيْرَ رَبْوَةٍ كُرَوِيَّةٍ بَيْضَاءَ... تَوَجَّهْتُ نَحْوَ هَذَا الشَّيْءِ الْغَرِيبِ، كَانَ أَمْلَسَ كَالرُّخَامِ. وَ تَسَاءَلْتُ: « مَا هَذَا الشَّيْءُ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَابٌ، وَ يَبْدُو أَجْوَفَ... لَوْ أَثْقُبُهُ بِحَجَرٍ مُسَنَّنٍ... »





لَكِنْ فَجْأَةً أَظْلَمَتِ السَّمَاءُ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي مُبَاشَرَةً فَوْقِي ؛ فَوَجَدْتُ طَائِرًا ضَخْمًا، كَانَ يَحُومُ، وَ يُطَقْطِقُ بِمِنْقَارِهِ الرَّهِيبِ. اِنْقَضَّ الْوَحْشُ عَلَى الْأَرْضِ، وَ بِحَرَكَةٍ مِنْ أَجْنِحَتِهِ حَطَّ - دُونَ أَنْ يَرَانِي - عَلَى الشَّيْءِ الْأَبْيَضِ، وَ حِينَهَا فَهِمْتُ كُلَّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ : ذَلِكَ الشَّيْءُ الْغَرِيبُ كَانَ بَيْضَةَ الطَّائِرِ الْعِمْلَاقِ ! كَانَ الْبَحَّارَةُ قَدْ حَكَوْا لِي، وَ نَحْنُ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ، عَنْ طَائِرٍ عِمْلَاقٍ يُسَمُّونَهُ الرُّخَّ. وَ قَالُوا لِي أَيْضًا إِنَّ الرُّخَّ يَتَغَذَّى عَلَى الثَّعَابِينِ... كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ - وَقْتَهَا - يَبْدُو غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّصْدِيقِ وَ لَكِنَّهُ الْآنَ حَقِيقَةٌ ! قُلْتُ فِي نَفْسِي : « يَجِبُ أَنْ أُغَادِرَ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ الْمَهْجُورَةَ بِأَيِّ ثَمَنٍ. وَ سَيُسَاعِدُنِي طَائِرُ الرُّخِّ هَذَا فِي ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يَدْرِيَ ! »



نَزَعْتُ حِزَامِي، وَ رَبَطْتُهُ بِقَدَمِ الطَّائِرِ، وَ رَبَطْتُ الطَّرَفَ الْآخَرَ بِمِعْصَمِي وَ انْتَظَرْتُ، بَعْدَ قَلِيلٍ، حَرَّكَ الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ، وَ انْطَلَقَ فِي السَّمَاءِ، وَ هُوَ يَحْمِلُنِي دُونَ أَنْ يَشْعُرَ ! كُنْتُ أَرْتَعِدُ مِنَ الْخَوْفِ، فَقَدْ أَصْبَحَتِ الْجَزِيرَةُ تَحْتِي صَغِيرَةً جِدًّا، وَ كُنَّا نَطِيرُ عَالِيًا جِدًّا فِي السَّمَاءِ، وَ بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ اقْتَرَبَ طَائِرُ الرُّخِّ مِنْ كُتْلَةِ أَرْضٍ صَغِيرَةٍ ضَائِعَةٍ وَسَطَ الْبَحْرِ، كَانَتْ تَبْدُو جَزِيرَةً أَكْبَرَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي غَادَرْنَاهَا. حَطَّ الطَّائِرُ عَلَى أَرْضِهَا، وَ بِسُرْعَةٍ فَكَكْتُ الْحِزَامَ وَ قَفَزْتُ عَلَى الْأَرْضِ، دُونَ أَنْ يَرَانِي.

كَانَ الرُّخُّ يَنْظُرُ إِلَى ثُعْبَانٍ مُخِيفٍ، كَانَ مُتَوَاجِدًا عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَ كَانَ يُهَدِّدُهُ بِلِسَانِهِ ذِي الْحَدَّيْنِ. وَ شَهِدْتُ صِرَاعًا دُونَ شَفَقَةٍ بَيْنَ الْوَحْشَيْنِ. وَ فِي النِّهَايَةِ، طَرَحَ طَائِرُ الرُّخِّ مُنَافِسَهُ وَ مَزَّقَهُ إِرَبًا ثُمَّ طَارَ بِاتِّجَاهِ السَّمَاءِ. أَطْلَقْتُ صَرْخَةَ فَرَحٍ، لَكِنْ هَنَائِي لَمْ يَدُمْ طَوِيلًا، فَقَدْ كَانَتِ الْجَزِيرَةُ عُشًّا وَاسِعًا لِلثَّعَابِينِ، وَ كَانَ كُلُّ الْوَادِي يُرَدِّدُ فَحِيحَهَا الرَّهِيبَ فَتَسَاءَلْتُ فِي حَسْرَةٍ : « أَيُّهُمَا أَفْضَلُ : أَنْ يَتِمَّ الْتِقَاطُكَ كَحَبَّةِ قَمْحٍ مِنْ طَرَفِ طَائِرٍ ضَخْمٍ، أَمْ أَنْ تُبْتَلَعَ كَعُصْفُورِ الدُّورِيِّ مِنْ طَرَفِ ثُعْبَانٍ مُتَوَحِّشٍ ؟ »، وَ قَرَّرْتُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ مَخْبَأً، لِأُفْلِتَ مِنَ الثَّعَابِينِ.



وَ فِي مَكَانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنِّي، رَأَيْتُ كَهْفًا لَبِثْتُ فِيهِ، مُنْتَظِرًا قُدُومَ اللَّيْلِ. قُمْتُ بِاسْتِكْشَافِ الْمَخْبَإِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَوَجَدْتُهُ مَغَارَةً تَقَعُ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ، تُنِيرُهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ... بَهَرَ عَيْنَيَّ أَلْفُ شُعَاعٍ مُخْتَلِفِ الْأَلْوَانِ. مَدَدْتُ يَدَيَّ لِأَرْفَعَ الْحِجَارَةَ الَّتِي كَانَتْ مُتَنَاثِرَةً عَلَى الْأَرْضِ : كَانَتْ أَحْجَارًا كَرِيمَةً ! بَقِيتُ هُنَاكَ مَصْعُوقًا ـ مِنْ فَرْطِ دَهْشَتِي ـ حَامِلًا تِلْكَ الْكُنُوزَ بَيْنَ يَدَيَّ. وَ لَمَّا لَمْ أَعُدْ أَسْمَعُ فَحِيحَ الثَّعَابِينِ، أَلْقَيْتُ نَظْرَةً إِلَى الْخَارِجِ... فَرَأَيْتُ قِطَعَ لَحْمٍ تَتَسَاقَطُ ! أَجْزَاءٌ كَامِلَةٌ مِنْ ذَبَائِحِ الْبَقَرِ تَتَسَاقَطُ مِنَ السَّمَاءِ ! فَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي فِي كَابُوسٍ، وَ قُلْتُ لِنَفْسِي : « لَقَدْ فَقَدْتَ عَقْلَكَ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ ! »...



وَ بَعْدَ قَلِيلٍ، رَأَيْتُ فِرْقَةً مِنَ النُّسُورِ الْكَبِيرَةِ تَنْقَضُّ عَلَى قِطَعِ اللَّحْمِ وَ تَطِيرُ بِغَنِيمَتِهَا، وَ سُرْعَانَ مَا أَدْرَكْتُ حَقِيقَةَ مَا يَحْدُثُ : « عَلَى مَا يَبْدُو أَنَّ أَحَدَهُمْ رَمَى بِتِلْكَ الْقِطَعِ كَطُعْمٍ . لِمَاذَا لاَ أَسْتَفِيدُ مِنَ الْفُرْصَةِ حَتَّى أَجْعَلَ النَّسْرَ يَطِيرُ بِي مِنْ هُنَا ؟ » خَرَجْتُ بِحَذَرٍ مِنْ مَخْبَئِي. كَانَتِ الثَّعَابِينُ قَدْ فَرَّتْ بِحُضُورِ النُّسُورِ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْ قِطْعَةِ لَحْمٍ وَ رَبَطْتُهَا عَلَى ظَهْرِي، وَ اسْتَلْقَيْتُ عَلَى وَجْهِي. وَ كُنْتُ قَدْ قُمْتُ، مُحْتَاطًا، بِمَلْءِ جُيُوبِي بِالأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، الَّتِي وَجَدْتُهَا فِي الْمَغَارَةِ، فَلَوْ كُتِبَتْ لِي النَّجَاةُ، فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّنِي سَأَصِيرُ غَنِيًّا ! بَعْدَ قَلِيلٍ، شَعَرْتُ فَوْقِي بِصَوْتٍ كَبِيرٍ لِحَرَكَةِ أَجْنِحَةٍ... قُوَّةٌ لاَ تُقْهَرُ أَخَذَتْنِي إِلَى السَّمَاءِ ؛ إِذْ كَانَ النَّسْرُ قَدْ قَبَضَ عَلَيَّ بِمَخَالِبِهِ، وَ أَنَا مُخْتَبِئٌ تَحْتَ قِطْعَةِ اللَّحْمِ... طَارَ النَّسْرُ فَوْقَ الْوَادِي، ثُمَّ حَطَّ عَلَى قِمَّةٍ صَخْرِيَّةٍ ؛ حَيْثُ كَانَ قَدْ بَنَى عُشَّهُ.

أَرَدْتُ أَنْ أَهْرُبَ، وَ لَكِنَّنِي سَمِعْتُ صِيَاحًا تَحْتَ الْعُشِّ . . . فَزِعَ النَّسْرُ مِنْ تِلْكَ الْأَصْوَاتِ وَ طَارَ ؛ فَوَقَفْتُ وَ نَظَرْتُ لِأَرَى مَا يُوجَدُ تَحْتَ الْعُشِّ، كَانَتْ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الْمُسَلَّحِينَ بِالْعِصِيِّ. فَقَفَزْتُ مِنَ الْعُشِّ، وَ أَنَا أَصْرُخُ قَائِلاً : « إِنَّنِي سَالِمٌ مُعَافًى ! »، فَقَالَ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا، وَ كَانَ يَبْدُو أَنَّهُ رَئِيسُهُمْ : « مَنْ أَنْتَ ؟ وَ كَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى الْعُشِّ ؟ هَلْ أَنْتَ تَاجِرٌ مِثْلُنَا ؟ ». قَصَصْتُ عَلَيْهِمْ حِكَايَتِي، فَقَالَ كَبِيرُ التُّجَّارِ : « إِنَّهَا مُعْجِزَةٌ أَنْ تَأْتِيَ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِالذَّاتِ، إِنَّنَا لَا نَأْتِي إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ إِلَّا مَرَّةً كُلَّ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ ؛ وَ قَدْ رَمَيْنَا بِكُلِّ قِطَعِ اللَّحْمِ الَّتِي مَعَنَا، وَ قَدِ انْتَهَى قِطَافُنَا ».





سَأَلْتُ مُتَعَجِّبًا : « قَطْفُكُمْ ؟! ».

فَأَوْضَحَ كَبِيرُ التُّجَارِ الْأَمْرَ، قَائِلاً : « قَطْفُ الْمَاسِ... هَذَا الْوَادِي لَهُ جُرُوفٌ ضَيِّقَةٌ، لَا نَسْتَطِيعُ النُّزُولَ بَيْنَهَا، وَ هُنَاكَ يَتَوَاجَدُ الْمَاسُ. وَ قَدْ وَجَدْنَا وَسِيلَةً جَيِّدَةً لِجَلْبِ هَذَا الْمَاسِ. نَأْخُذُ مَعَنَا كَمِّيَّةً مِنَ اللَّحْمِ، وَ نَرْمِي بِهَا فِي عُمْقِ الْوَادِي، وَ عِنْدَمَا تَرَاهَا النُّسُورُ تَأْخُذُهَا إِلَى أَعْشَاشِهَا. وَ يَكُونُ هُنَاكَ دَائِمًا بَعْضُ الْمَاسِ قَدْ لَصِقَ بِاللَّحْمِ، وَ لَا يَبْقَى لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ سِوَى إِفْزَاعِ النُّسُورِ وَ التَّسَلُّقِ نَحْوَ أَعْشَاشِهَا لِاسْتِرْجَاعِ الْمَاسِ. لِلْأَسَفِ، الْمَاسَاتُ الْكَبِيرَةُ تَبْقَى دَائِمًا فِي عُمْقِ الْوَادِي ؛ لِأَنَّهَا تَسْقُطُ أَثْنَاءَ الطَّيَرَانِ بِسَبَبِ ثِقَلِهَا ».

فَقُلْتُ لَهُ : « هَذِهِ الْمَرَّةَ لَنْ تَخِيبَ آمَالُكُمْ ! » ثُمَّ أَخْرَجْتُ مِنْ جُيُوبِي الْمَاسَاتِ الَّتِي كُنْتُ قَدْ جَمَعْتُهَا. بَدَتِ السَّعَادَةُ عَلَى وُجُوهِ جَمِيعِ التُّجَّارِ، وَ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ أَقَمْنَا حَفْلًا لَا يُنْسَى. وَ فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، أَخَذْنَا طَرِيقَ الْعَوْدَةِ... كَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَبْقَى فِي بَيْتِي هَانِئًا حَتَّى آخِرِ أَيَّامِي، لَكِنَّنِي أَدْمَنْتُ الْمُغَامَرَاتِ وَ الْأَسْفَارَ الطَّوِيلَةَ. كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَكْتَشِفَ بُلْدَانًا جَدِيدَةً، فَرَكِبْتُ وَ قُمْتُ بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَ لَكِنْ إِنْ أَرَدْتُمْ، سَأَحْكِي لَكُمْ فِي مَرَّةٍ أُخْرَى بَقِيَّةَ مُغَامَرَاتِي...

